

سورة الكهف (الآيات: 53 - 55)

16

١٦

أهداف الدرس

- 1 - أن أتعرف الغاية من تصريف الأمثال في القرآن.
- 2 - أن أدرك الغاية من إرسال الرسل عليهم السلام.
- 3 - أن أتجنب الجدل بالباطل والاستخفاف بالحرمان والمقدسات.

تمهيد

بعد أن ذكّرت الآيات السالفة بقصة إبليس مع آدم، وحذرت من اتخاذ ذريته أولياء من دون الله، وعاقبة من يتولاهم يوم القيامة، جاءت هذه الآيات تنهى عن الجدل بالباطل والاستهزاء بالحق، وأنهما كانا مانعين للكفار من الانتفاع بأمثال القرآن واتباع هداياته.

فما عاقبة الجدل بالباطل؟ وما غرض الكفار من الجدل والاستهزاء بالحق؟ وما الدروس التي أستفيد منها من هذه الآيات؟

الآيات

قال الله تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ﴿٥٣﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الدُّعَاءُ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ مِنْ آلَاءِ رَبِّهِمْ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًّا ﴿٥٤﴾ وَمَنْ نُرْسِلِ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا نُنْذِرُوا لَعْنًا ﴿٥٥﴾ [الكهف: 53 - 55].

الفهم

الشرح:

صَرَفْنَا: بينا وفصلنا.

مَثَلٍ: ما فيه موعظة وعبرة.

فَبَلَاءٍ: فجأة ومعاناة.

فُزُوا: لهوا وتهكما.

استخلاص مضامين الآيات:

1 - بم يقابل الكفار أمثال القرآن؟

2 - بم توعّد الله المعرضين عن دعوة القرآن وأمثاله؟

3 - ما هي أوصاف الكفار في الآيات؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: تصريح الأمثال في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ الْفُرْآنَ لِلنَّاسِ مِنْ كَأَمَثَلٍ﴾، وتصريف الله للأمثال سوقها وتنويعها للعة والاعتبار، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْزِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

وقوله: ﴿مِنْ كَأَمَثَلٍ﴾ أي: من كل مثال له نفع في الغرض المقصود بهم، وهو الهداية، وذلك ما أوضح لهم سبحانه من دلائل الربوبية والوحدانية والبعث والحساب. والمعنى: «وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَصَّلْنَاهَا كَيْلًا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى». [تفسير القرآن العظيم: 4 / 400].

قال القرطبي رحمه الله: «يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا ذَكَرَهُ لَهُمْ مِنَ الْعِبَرِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ. وَالثَّانِي: مَا أَوْضَحَهُ لَهُمْ مِنْ دَلَائِلِ الرُّبُوبِيَّةِ ...، فَهُوَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ زَجْرٌ، وَعَلَى الثَّانِي بَيَانٌ». [الجامع لأحكام القرآن: 6 / 6].

وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ هو خبر مقتضب، في ضمنه: فلم ينفع فيهم تصريح الأمثال، بل هم منحرفون يجادلون بالباطل، فمع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله بصره لطريق النجاة. وفي الآية إشارة إلى إحدى طبائع الإنسان الجبلية إذا لم يهذبها الشرع الحكيم، وهي الجدل، وهي كقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَجُورًا﴾ [الإسراء: 67] وقوله: ﴿إِنَّا الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6]. وقوله: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يريد الجنس، وروي أن سبب نزول هذه الآية هو النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزبعرى، فيكون قوله: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ من العموم المراد به الخصوص.

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. [صحيح البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، حديث 1075] فاستعمل ﷺ الآية على العموم في جميع الناس. وإنما لم يرجع إليه النبي ﷺ شيئا كراهية للجدل في الدين، لا سيما وقد نسب عدم قيامهما إلى أن الله لو شاء لأيقظهما، ويظهر أنه لو أجابه لزداد الحوار ودخل في المماحكة كشأن الجدل في غالب الأحوال.

وفي هذا البيان من الله ورسوله ﷺ ذم الجدل في الدين بغير علم أو دليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: 8]. ولا سيما إذا أدى إلى تأويل صريح النصوص ومحو دلالاتها الظاهرة والقطعية. وجاء في الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل». [سنن الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة الزخرف، حديث 3253].

ثانيا: بيان حال المكذبين، وتعرضهم لمثل ما حل بأسلافهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾: المراد بالناس في الآية كفار قريش والكفار في عصر النبوة، فهو عموم أريد به الخصوص كما تقدم، ومعنى ﴿إِنْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾: إذ أتاهم شرع الله الذي نزل به الوحي، ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾: مما هم عليه مقيمون من شركهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ما حل بالأولين من الأمم السالفة من أنواع العذاب من الغرق والصيحة والظلمة والريح وغير ذلك،

وهذه آية تأسف عليهم وتنبية على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن بقصد منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم تقتضي التأسف عليهم. ومثلها في المعنى ما تقدم في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 94]. و﴿وَمَا﴾ في الآية حرف نفي، و﴿إِلَّا﴾ إبطال للنفي السابق، وهو المعروف بالاستثناء المفرغ، وفيه تَقَرُّغٌ ما قبل ﴿إِلَّا﴾ للعمل فيما بعدها، فقله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ مؤول بمصدر، أي: إلا إتيان، وهو فاعل ﴿مَنَعَ﴾ عمل فيه ما قبل ﴿إِلَّا﴾، وهذا الحرف يحول «ما» و«هل» و«إن» من معانيها الأصلية إلى النفي.

ثالثاً: الغاية من إرسال الرسل عليهم السلام:

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، لما تفجع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخسران، قال : وليس الأمر كما يظنون، فالرسل لم نبعثهم ليجادلوا، ولا لنتمنى عليهم الاقتراحات، وإنما بعثناهم مبشرين من آمن بالجنة، ومنذرين من كفر بالنار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ الَّتِي هِيَ حُضُوءٌ بِالْحَقِّ﴾ مَعْنَى ﴿لِيَذْهَبُوا﴾

يُزِيلُوا وَيُبْطِلُوا، وَأَصْلُ الدَّخْصِ الزَّلَقُ، يُقَالُ: دَخَصْتُ رِجْلَهُ أَي: زَلَقْتُ، تَدَخَّصُ دَخْصًا، وَدَخَصَتْ الشَّمْسُ عَنْ كِبِدِ السَّمَاءِ زَالَتْ، وَدَخَصَتْ حُجَّتُهُ دُخُوصًا بَطَلَتْ، وَأَدَخَصَهَا اللَّهُ، وَالْإِدْخَاضُ الْإِزْلَاقُ. والمعنى: وَيَخَاصِمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْبَاطِلِ لِيَدْفَعُوا الْحَقَّ بِبَاطِلِهِمُ الَّذِي يَنْصُبُونَهُ وَيَجَادِلُونَ بِهِ لِيُزْحِزَّوهُ وَيَزْلَقُوهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ وَإِنْ حَاوَلُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُخْصِفُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ 8 ﴿فَوَالْبَاطِلِ أَرْسَلُ رَسُولَهُ بِالْعَقْلِ وَدِيرِ الْعَقْلِ لِيُخْصِفَهُ، عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 8] - 9. قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُجَادِلُونَ فِي الرَّسُولِ ﷺ فَيَقُولُونَ: سَاحِرٌ وَمَجْنُونٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا أَيْلِينَ وَمَا نَذِرُوا نَعْرُوزًا﴾ أي: جعلوا من آيات القرآن لعباً ولهواً. و﴿مَا﴾ مصدرية أي: وَالْإِنْذَارُ، وَقِيلَ: مَوْصُولَةٌ، وَعَائِدُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ وَالَّذِي أَنْذَرُوا بِهِ مِنَ الْوَعِيدِ هُزُوءًا أَيْ لَعِبًا وَبَاطِلًا، وَقَوْلُهُ: ﴿نَعْرُوزًا﴾ هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِفِعْلِ ﴿وَاتَّخَذُوا﴾، وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ قَوْلُهُ: ﴿أَيْلِينَ﴾. و«الهزؤ» بضمين، أَوْ بضمّة فسكون تخفيفاً. وبالأخيرة قرأ حمزة مع الهمز، وقرأ حفص عن عاصم بإبدال الهمزة واوا. وقرأه الباقون بضمين مهموزاً. والهزء السخرية والاستخفاف بالقرآن وما جاءهم به النبي ﷺ. قِيلَ: هُوَ قَوْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي الزُّبْدِ وَالتَّمْرِ هَذَا هُوَ الزَّقُومُ. وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ: هُوَ سِحْرٌ وَأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَ﴿أَسْلَحِيرٌ﴾ الْوَلِيُّرُ الْكَتَبَتَا فَيَعْنِي تَمَلُّرًا عَلَيْهِ بُكَرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 5].

رابعاً: لطائف وفوائد:

- البشارة والندارة هي وظيفة الرسل ومهمتهم، وذلك دليل رحمة الله بالعباد وعنايته بهم، وأنه لم يخلقهم عبثاً ولم يتركهم سدى، كما أن فيها حجة قاطعة لعذرهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتْلِ نَفْسٍ الَّتِي نَرَسُلَ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: 21]. وعلى هذا دل أسلوب الحصر في الآية في قوله: ﴿إِلَّا مَبَشِّرِي وَمُنْذِرِي﴾، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 164]. أي: بعد إرساله للرسل مبلغين عنه.

- من حسن الخلق ترك كثرة الجدل في المعاملات والمماحكة في البيوعات والشركات، والتحلي فيها بالسماحة والشهامة، ففي الحديث عن السائب بن أبي السائب - رضي الله عنه - أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة، فلما كان يوم الفتح جاءه فقال النبي ﷺ: «مَرْحَبًا بِأَخِي وَشَرِيكِي كَانَ لَا يُدَارِي وَلَا يُمَارِي، يَا سَائِبُ قَدْ كُنْتَ تَعْمَلُ أَعْمَالًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا تُقْبَلُ مِنْكَ، وَهِيَ الْيَوْمَ تُقْبَلُ مِنْكَ». [المستدرک: کتاب البيوع، حديث 2298].

التقويم

- 1 - ما الجدل المذموم في الآيات؟ وما أجر تاركه؟ وكيف أطبق ذلك في سلوكي؟
- 2 - من المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؟ وكيف تُوجَّه الآية أصولياً؟
- 3 - أذكرُ القراءات الواردة في كلمة ﴿فَبَيِّنَّا﴾، والمعنى على كل قراءة.
- 4 - ما معنى قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ الْإِبْرَاهِيمَ﴾؟

الاستثمار

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «الْأَثَارُ كُلُّهَا فِي هَذَا الْبَابِ الْمَرْوِيَّةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا وَرَدَتْ فِي النَّهْيِ عَنِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ فِي الْقُرْآنِ.... وَالْمَعْنَى أَنْ يَتِمَارَى اثْنَانِ فِي آيَةٍ يَجْحَدُهَا أَحَدُهُمَا وَيَدْفَعُهَا وَيَصِيرُ فِيهَا إِلَى الشُّكِّ...، وَأَمَّا التَّنَازُعُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ فَقَدْ تَنَازَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ...، وَالْمِرَاءُ وَالْمُلَاحَاةُ غَيْرُ جَائِزٍ شَيْءٌ مِنْهُمَا، وَهُمَا مَذْمُومَانِ بِكُلِّ لِسَانٍ وَنَهَى السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنِ الْجِدَالِ فِي اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَفِي صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَأَمَّا الْفِقْهُ فَأَجْمَعُوا عَلَى الْجِدَالِ فِيهِ وَالتَّنَازُرِ؛ لِأَنَّهُ عِلْمٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى رَدِّ الْفُرُوعِ عَلَى الْأُصُولِ لِلْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ». [جامع بيان العلم وفضله: باب ما تكره فيه المناظرة والجدال والمراء: 2 / 928].

أتأمل نص الحافظ ابن عبد البر وأجيب عما يأتي:

- 1 - ما نوع المراء الذي جاءت النصوص تنهى عنه؟
- 2 - ما حكم المناظرة في الأحكام الفقهية؟ ولماذا؟
- 3 - أمثلُ ببعض المناظرات الفقهية في التراث الإسلامي.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 56 - 58 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- ما الحائل بين الكفار والهدى؟
- 2- لماذا لم يعجل الله بإنزال العذاب على الكفار؟
- 3- ما المراد بالكلمات الآتية: أَكِنَّةٌ - وَفْرًا - مَوْبِلًا ؟